الشمس باردة في خط الاستواء !

قصة بقلم جان الكسان

اني اختنق ..

ضيق عجيب يشد اضلاع صدري الى داخل .. خيبة كبيرة احسها دوامة عنيفة انداح فيها بيأس ، والعينان الاسرتان في وجه « ثروة » تلوح فيهما سخرية متعبة .. متعبة ..

هناك لم اكن هكذا ، واحلامي كانت تقطع كل المفازات وتتحدى جبالا وتلالا وسهوبا ، وتظل في اطلالة عالية كصهيل الخيل المتمرد وقد حطمت عناد قمة . اشعر اليوم انني انتهيت من حيث كان علي ان ابدأ .. انني عاجز تماما عن قلب مفهوم بدايتي ونهايتي في مدينتي هذه الكبيرة التي اضاعتني .. انا لست بطلا فيها .. هناك قالوا عني انني بطل ، ولكن للبطولة هنا مفهوما اخر ، لا اصلح له وفي قلبي هذه الطيبة البليدة التي ترتعش معها الخاطرات الحلوة في عيني وعروقي ثم تموت بسرعة ..

مدينتي بدأت تخيفني .. تثير القرف في نفسي تشعرني بضياع كبير لا اجد منفذا للتخلص منه .. لم تكن هكذا قبل ان اغادرها الى هناك ، كانت في نظري عجوزا فاتنة ، أفتن من الصبايا ، اقبل عليها بنهم وامتص كل ذرات فتنتها . لم اكن اعرف حقيقتها قبلا ، كنت انسانا بلا تجارب عميقة لااعرف الا مدرسة التجهيز ، وخمارة ابي ابراهيم ، ودار البغاء ، وشلة الرفاق التي التقي ببعض افرادها في احد الاماكن او القاهم مجتمعين في مقهى السلوان يقتلون الوقت ـ وانا بينهم ـ في لعب الكونكان ..

ابي اخطأ في تدليلي .. هذا ما ادركته الان ، وكذلك امي ، واختي سميحة ، و « ثروة » جعلتني العن الان تلوي جسدها الثعباني كلما ثار بياض ساقيها على حرير ثيابها الداخلية . البارحة بصقت في وجهها طردتها من غرفتي ، اردت عبثا ان تملأ فراغ قلبي ، كانت من قبل تثيرني بتثني جسدها الثعباني ، اما اليوم فقد اثارت في هي الاخرى القرف ، ماذا تختلف عن رابحة التي ازورها في دار البغاء ؟.

انها نهاية عجيبة هذه التي وصلت اليها ، تذكرني ببداية سابقة مضادة لها في المفهوم وفي المسار الذي سلكته وفي نوع أيلولتها .. بداية وعيي على حقيقة المدينة وحقيقة الحياة ، يوم غادرت هذه المدينة الى الخطوط الامامية للحدود في الجنوب .

***

البداية .. يوم وقف والدي العجوز بقامة منتصبة في المحطة قبل ان اصعد الى القطار ، يشد على يدي ويقول : هذه الارض قد رعتك ياولدي حتى اصبحت هذا الرجل الذي يقف امامي ، لقد امضيت انا في الجندية عشرين سنة ، حاربت في ميسلون والغوطة وجبل العرب والدردنيل وفلسطين ، وكنت دائما اعرف واجبي ، وعليك انت ان تعرف واجبك اليوم في حياتك الجديدة .

وسار القطار .. وانزويت في مكاني افكر في كلمات ابي ، لقد اعجبني رجل ولد فيه مع ميلاد هذه الكلمات ، كان دائما يدللني بكلمات رقيقة .. كان يجعلني دائما لا ارى في معنى وجودي الا معنى سعيي لا مبال انطلق فيه متواكلا . كنت اتوقع ان يعانقني ويقبلني بحنان ، ويبكي ، ويقول لي : حاول ان تعود نفسك على حياة الجندية ياولدي ، انها حياة قاسية ولكنها ستنتهي .

لكنه لم يفعل شيئا من هذا ، لقد قال كلماته تلك وربت على كتفي بهمة شاب معتد بقوته ، لقد شعرت يومذاك باعتزاز كبير ، شعرت بدماء حارة تتدفق في عروقي ورأسي ، وبقلبي يكبر ويكبر ، حتى خيل الي لحظتها ان في وسعي ان اوقف القطار بسبابة يدي .

في المعسكر ، قالوا عني في الايام الاولى انني جندي جبان ...اهانة قاسية جاءت كأنها ضربة مطرقة هائلة ارتج لها كياني وزاغت عيناي فبدت امامهما الرؤى باهتة مهزوزة ... وانزويت في « البلوكوس » افتش عن الجبن في ذاتي فلا اجد له ظلا سوى انطوائي على نفسي واجتراري ذكريات المدينة ، وصور التجهيز ، ودار البغاء ، ومقهى السلوان ، وخمارة ابي ابراهيم وشلة الرفاق ، وساقي « ثروة » الثائرتين ابدا على حرير ثيابها الداخلية .

ووجدتني حبيس ذاتي ، حبيس هذه الذكريات التي ماتنفك تسلب ارادتي فاذا انا ادور معها وادور ... وادور ..

« جندي جبان » !.

كنت لم اخض معركة بعد ، ولم يعجم عود شجاعتي ، ففيم الاهانة ؟.

حاولت جاهدا ان اقنع رفاقي ورؤسائي بانني لست جبانا ، وان تهمتهم باطلة ، ولكني عبثا كنت احاول ، وادركت الفرق بين حياتي في المدينة وحياتي في الخطوط . في المدينة كنت ارد التهم بتزييف الحقائق ، باجتراح موهوم ، ابديه بافتعال امام الكاذبين والحاسدين ، فيصدقني الناس .. امي كانت تفعل هذا .. كانت تقول لجارتنا ام سهيلة عندما تسالها كم تقدر لها من العمر : لا اظنك تتجاوزين الثلاثين ، فتشيع ابتسامة رضى عريضة على وجه ام سهيلة طيلة الجلسة ، حتى اذا انصرفت وثرت على مراءاة امي ربتت بيدها على خدي وهي تقول : انت لاتعرف الحياة بعد .. يجب ان تساير الناس لكي تستطيع ان تعيش بين الناس .

واظل في انطوائي ، احتل ركنا منزويا في البلوكوس وانا سادر في استعادة ذكرياتي في المدينة اجترها مع جرعات الشاي الاسود الثقيل ، ولعنة الكلمة ، جبان تصطرع في نفسي بعنف وانا انظر الى وجوه رفاقي سعيد ، وعايش ، وسمعان ، وسلمان القصير ذي السحنة الصفراء والاسنان الكبيرة وهو يضج في المكان ويصيح قبل وبعد كل جملة « ياقرد » ، ثم يخرج من جيبه كتابا اصفر يقرأ فيه سيرة الزير وابي زيد الهلالي .

كم كرهت هؤلاء في اول عهدي بالمعسكر ، شعرت بخيوط النقمة تتدافع من كياني ليلتف كل منها على واحد منهم ، وكان يتراءى لي

ن الخيط الذي يلتف حول سليمان ، اغلظ تلك الخيوط ، واشدها قسوة، واقدر على هصر رقبته المعروقة .

ـ . جبان .. جبان ..

وصحت به : لماذا ياسليمان .. لماذا تهينني ؟.

ـ . جبان .. جبان .. جبان !.

لم اكن اتصور ان لكفي كل هذه القوة الا عندما رأيت سليمان يتداعى على نفسه ويسقط ، ولولا ان انقذه مني العريف ناصر في اخر لحظة ، لاجهزت عليه .

وقال الملازم عدنان امر السرية : لماذا ضربت رفيقك ؟.

. .....

ـ . قلت لك لماذا ضربته ؟.

ـ . لانه اهانني .

ـ . ماذا قال لك ؟.

ـ . قال انني جبان .

ـ . ولكنك اخطأت في عملك ، سارفع تقريرا بسجنك ثلاثة ايام مع طلب الزيادة . وحاول ان تكون قدوة بين رفاقك ، انت تتهرب من التدريب ، وتتمارض ولا تحاول ان تتسلق التل معهم ، وتدعي دائما ان حذاءك غير مريح ، تلح في طلب الماذونية لتزور اهلك ، هذه الاشياء ، وان كانت لاتدل على الجبن الحقيقي الا انها ليست من صفات الجندي ، هل فهمت ؟. اذهب الان ، وحاول الا تثبت لي ماينعتك به رفاقك .

***

واصبحت بطلا ...

قال لي كل من في القطاع : « انت بطل » .. كان اولهم سليمان .. لاول مرة لم يزد كلمة « ياقرد » على جملة قالها ..

وعبثا حاولت ان اقنع رؤسائي ورفاقي انني لست بطلا ، وان ماقمت به يستطيع ان يقوم به اي واحد منهم .. لقد اسكتوني غير مقتنعين وقال الملازم عدنان ، وأكد على ذلك الرئيس شوكت : لاشك ان كل اخوانك الجنود بواسل شجعان ، ولكن للبطولة معنى اخر في الميدان .

كان امر السرية قد قال لنا في اجتماع مفاجيء : امامنا عمل خطير يجب ان يتم ، يجب ان يتطوع احدكم لينسف الجسر .

« كان الجسر عقدة مواصلات العدو » .

وفي صباح اليوم التالي كان خبر تسللي الى مراكز العدو ونسفي للجسر ، حديث الخطوط على طولها .

واصبحت سعيدا .. كدت ان ابكي من فرحي عندما علق امر الغوج على صدري وساما وقرأ على الجنود ثناء القيادة العليا . وبعدها ،تكامل ايماني بالقيم الحقة ، وكفرت بفلسفة امي وام سهيلة والف الف واحدة من امثالهما .. الحقيقة وحدها اقنعتني بانها فوق التهم الباطلة .

***

انـي اختنـق ..

كنت انذاك اكثر سعادة ، وفي عروقي كنت استشعر استمرارا حارا لتوثب دافق ، كنت اشعر بنفسي اكاد الامس حدود المطلق من السعادة عندما اتمدد بثياب الميدان على العشب ، وجهي الى الارض امرغه في قطرات الندى الباردة اللامعة على السوق الصغيرة ، وذهني صاف خال من خواطر المدينة التي عدت احياها اليوم واقعا يجعلها تتسلق جبهتي بضنك ، ثم تتساقط كالعقارب الميتة ..

مدينتي كلها ، العجوز الفاتنة كنت اقبل عليها بنهم وامتص كل ذرات فتنتها اصبحت امامي كومة من الافخاذ المريضة العارية يتسلقها دود كثير ملون ، يحك جلدها بقسوة ثم يزرق فيه لعابا ساما ..

وانوارها .. انوارها التي كانت تبهرني في الامسيات الدافئة . اصبحت بدورها كومة من عيون عفاريت وقحة تبعث نورا يتراقص بجنون فوق الواجهات ، او يجثم ببلاهة على اعمدة طويلة ..

وشلة الاصدقاء ، ندماء المدرسة والخمارة والمقهى ودار البغاء ، اصبحت امقتهم .. اصبحت غريبا فيهم ، بدأت احس بتفاهة تمزقني في قهقهاتهم الجوفاء وهي تنفجر في وجهي حمقاء ، بلا رجولة .

كلهم ، بدوا امامي اقزاما مشوهين ضاعوا في ثيابهم وفي اشيائهم الاخرى السخيفة ، اليوم ـ وانا بينهم ـ تمنيت لو وقفوا امامي رتلا لاكيل لهم ، واحدا تلو الاخر صفعات قوية ، خانقة .

لماذا يضيعون عن الحقيقة ؟. لماذا لايتخلون عن ايمانهم بفلسفة امي وام سهيلة ، سامي ميسر قال لي منذ يومين : انك كنت في حالة سكر عندما تسللت ونسفت الجسر .

ونعيم ظل يدافع ساعة وهو يفاضل بين جسدي رابحة وكاميليا اجمل امرأتين في دار البغاء ، ثم ينفتل الي فجأة ويقول : اسمع يا « بطل » لولا ان ابي دفع لي بدل خدمة العلم نقودا لسبقتك الى هذه البطولة ، ولكن حظك اقوى ..

واحاول ان اصدق كلامه ، واحترم له عزمه على الاقتراب من الحقيقة ، ولكنه سرعان مايفجر بين اشداقه ضحكة سمجة ينهار معها الهرم الذي بنيته له ، فاذا هو قزم امام الحقيقة العملاقة .

واسائل نفسي : هل انا مريض ؟. الم اعد اصلح للحياة بين الناس ؟.

واتذكر قول امي « يجب ان تساير الناس لكي تستطيع ان تعيش بين الناس » ..

ولكن ، لماذا لا يسايرني الناس بدلا من ان اسايرهم .. انا عرفت الحقيقة ، وهم غافلون عنها ، فلماذا اشد نفسي الى الارض بكملة انهزامية : « مسايرة » ؟..

***

« يا مدينتي » !.

يافاتنة احببتها لانني لم اكن اعرف منها غير فتنتها .. انك تثيرين الان في نفسي القرف .. اشعر انني انتهيت فيك حيث كان علي ان ابدأ لقد ضعت في ثناياك العفنة ، وصدمتني مراءاة عجيبة في نفوس اناسك .. انا لست بطلا فيك ، فابطالك مزيفون ، وللبطولة في قاموسك العجيب معنى مضحك ، سخيف .

لن اجعلك تهزئين بي اكثر .. سأذهب الى هناك .. الى الخطوط الامامية ، فقد سئمت المفاهيم المغلوطة وسئمت الضياع ..

. « يامدينتي .. سأرحل .. لانني لا اريد ان اؤمن بعد اليوم ان الشمس محرقة في القطب الشمالي .

دمشق

جان الكسان

من « جمعية الادباء العرب »

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون ٢٢٩٢١